

النص كاملاً، ففي هذا حفاظ على الأصل وهذا مما تقضي به الأمانة العلمية، وإثبات لطريقة عرض المؤلف لبعض الآراء التي قد تعدد من البدهيات عند غيره، مما لا ضرر من ذكره، كالجمل والعبارات التي لا تليق بقداسة (مكة) وحرمتها، فكان أن حذف، وحبذا لو وضعت أرقام صفحات الأصل بما يقابلها من صفحات الترجمة، مع الإشارة إلى مواضع الحذف ليتمكن المختصون من الباحثين ممن لا يخشى عليهم التأثر بالكلام المحذوف من الاهتداء إلى موضعه بسهولة، كما فعل مُعَرَّبًا «رحلة في بلاد العرب» لـ (بركهارت).

٣- ولعل مراعاة المعربين الكريمين الاهتمام بالمعنى دون التقييد باللفظ، إذ أُوضِحَ أن هدفهما التقييد بالمعنى المراد دون الابتعاد عن عبارات المؤلف - يقصدان المترجم الإنجليزي - ولكنهما على هذا اضطررا لإعادة صياغة بعض الفقرات بغية نقل المعاني، لعل هذا مما يشفع لهما أمام من يرى أنهما قدما للقراء خلاصة وافية عما ألفه (هورخرونيه) عن هذه المدينة، لا جميع ما يحويه هذا الكتاب الذي فيه من الطيب المستجاد، ماتم تيسير الاستفادة به، ومن (العُجْر) و (البُجْر) ما لا داعي لإشغال الأذهان بعرضه، وإن كان يسيراً.

٤- أما اختيار عنوان للكتاب هو في رأيهما أوضح دلالة في تسمية مؤلفه، فيحسن الوقوف عند هذا إذ الاسم الذي اختاره وهو «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» لا ينطبق على ما يحويه الكتاب، الذي ليس تاريخاً بالمعنى المفهوم من كلمة التاريخ، وإنما هو وصف لجميع الأحوال في تلك البلدة الكريمة في فترة غير محددة الزمن، إلا في مواضع يسيرة.

٥- وحسنا فعلا من إرجاع النصوص العربية التي استشهد بها إلى أصلها مع إضافة معلومات تتعلق بكثير مما طرقه المؤلف مما له صلة بهذا البلدة الطاهرة.

(شارل هوبر) مكتشف حجر تيماء

لقد دعت مناسبة ذكر هذا السائح الفرنسي أثناء حديثي عن المستشرق الهولندي (سنوك هورخرونيه)^(١) وعن قصة اختراعها، محاولاً تمويه سبب إخراجه من مكة المكرمة - دعت تلك المناسبة إلى إلحاق نبذة تتعلق بذكر زيارة (شارل هوبر) لشمال الجزيرة، وكان مما ينبغي التوسع في ترجمته، إلا أنني ليس لدي من المصادر ما يمكنني من ذلك، فعولت على ما تحدثت به عنه في كتاب «في شمال غرب الجزيرة»^(٢) وللتوسع في معرفة ما عثر عليه من الآثار يحسن الرجوع إلى ذلك الكتاب.

فقد طلبت الحكومة الفرنسية من السلطنة العثمانية التوسط لدى ابن رشيد بالسماح لعالم أثري ليقوم بزيارة شمال الجزيرة لدراسة آثارها، فكان أن تم ذلك، فقام (Charles Huber شارل هوبر) برحلته إلى الجزيرة سنتي ١٨٨٣ و١٨٨٤م فزار مدينة حايل ثم تيماء وتبوك فيما بين ١٦ شباط (فبراير) إلى أول نيسان (ابريل) من سنة ١٨٨٤م، وزار كذلك (العلا) في تلك المدة، وسجل كثيراً من مشاهداته فجمعت بعد وفاته في كتاب بلغت صفحاته (٧٨٠) صفحة عدا الخرائط التي بلغت (٢٤) وهو باللغة الفرنسية^(٣)، وكان أهم ما عثر عليه (حجر تيماء) وهو حجر يبلغ وزنه (١٥٠ كيلو غرام) وقد وصل إلى تيماء في ١٦ شباط، ونزل عند شخص يدعى عبدالعزيز العنقري، يظهر أنه من رجال ابن رشيد، وعرف أمير تيماء عبدالعزيز بن رمان. وزاره في بيته مرات، وتناول عنده طعام العشاء، كما دعاه الشيخ فهد المطلق أيضاً، وهو عندما يتحدث عن تيماء أثناء زيارته يقسمها ثلاثة أقسام:

(١) انظر ص ١٨٠ من هذا الكتاب.

(٢) ص ٣٥٠ - ٣٥٥.

(٣) نشر هذا الكتاب في باريس سنة ١٨٨٨م باسم (Journal D, Un Voyage en Arabia - 1883 - 1884), Puble Par La Societe Asiatique La Societe De Geographie Sous Les Auspices Du Ministère De L,In Struction Publique, Paris 1891).

١- سوق العلي: للشيخ ثويني بن رمان.

٢- سوق الماضي: للشيخ فهد المطلق.

٣- سوق الحميدة: للشيخ طالب العلي.

ويظهر أنه يقصد محلات البلدة.

ويتحدث في يوم ١٨ شباط بأنه ذهب هو والأمير عبدالعزيز، ومعه مملوكه وشخص آخر للبحث عن الحجر، وأنه طلب من عبدالعزيز أن يأتيه بالحجر بأي ثمن كان، ثم يكتب باللغة العربية: (وحمداً لله على الحصول على هذا الحجر!!).

ثم يتحدث بأنه بينما كان الأمير عبدالعزيز وشيوخ تيماء الثلاثة موجودين وجدها فرصة ليقول لعبدالعزيز: بأنه يرغب الحصول على ذلك الحجر الذي فوق قصر يعرف بـ (بيت الطليحان) عن طريق هدم الجدار بقوة، ويذكر بعد ذلك أن عبدالعزيز زاره في يوم ١٩ شباط بعد الظهر، وأنه ألح عليه باحضار الحجر، فوافق، وذكر أنه دفع لعبدالعزيز كيساً من النقود لم يبين مقدار ما فيه، وأن عبدالعزيز بعد ذلك قال: إن الحجر في قصر صاحبه، يحتاج إلى مقابل، ويقول (هوبر): بأنه دفع كيساً آخر. أما (فليبي) فيقول: بأنه حصل عليه مقابل شلنات قليلة، ولكن (فليبي) لا يفوته أن يقول: إن القوم في تيماء مازالوا يذكرون (هوبر)، الذي كان يدفع مثلي ضعف ما كان يتفق عليه مع السكان مقابل القيام بأي عمل من الأعمال.

ويتحدث (هوبر) كيف أن عبدالعزيز ذهب ومعه مملوكه وشخص يدعى محمود، وأحضروا له ذلك الحجر الذي عبر عن سروره عندما أحضر إليه، ثم بدأ يفكر في طريقة نقله، فهو حمل جمل، وهو بحاجة إلى الحفاظ عليه، لئلا ينكسر أو تتمحي بعض الكتابة أو الصورة أثناء السير، ثم يذكر بأنه طلب من عبدالعزيز استئجار أربع من الإبل لإيصاله إلى تبوك، فتظهر له صعوبة في

ذلك من أجل أن قبيلة الشرارات وقبيلة بني عطية هما أقرب إلى تبوك من تيماء، ومعنى هذا أنه معرض فيما لو استأجر من تيماء لتعرض بعض رجال هاتين القبيلتين أو لقبيلتي الفقير من عنزة وبني عطية الواقعتين بالقرب من تيماء وتبوك.

لا يعيننا من كل هذا إلا التعبير عما قاساه (هوبر) من مشقة للحصول على هذا الحجر، وهي مشقة سببت فيما بعد القضاء على حياته.

لقد زار (هوبر) شمال الجزيرة، إبّان حكم محمد بن رشيد، وقد زار حائل، واجتمع به وأهدى له سيوفاً وأسلحة وغيرها، وأرسل معه مرافقين لزيارة كل البلاد التي كانت تحت نفوذ ابن رشيد في شمال الجزيرة، ومن بين من أرسل معه شخص يدعى حمود بن مجراد، ولا يزال أهل حائل يذكرون السيوف الهوبريات.

سار (هوبر) وتجول في جبال أجأ، بل في شمال الجزيرة، وأنهى رحلته بعد حصوله على حجر تيماء، ونقله إلى (متحف اللوفر) في باريس، بطريق (سكة حديد الحجاز) من العلا إلى دمشق فما بعدها.

وكان (هوبر) لم تطب نفسه بذلك، فأعاد الكرة مرة أخرى وزار ابن رشيد في حائل، ومعروف أن ابن رشيد يظهر الخضوع للدولة العثمانية التي يظهر أنها هي التي يسرت لـ (هوبر) رحلاته، ولكنه بقدر ما وفق في رحلته الأولى خالفه التوفيق في الثانية، ذلك ان ابن رشيد بعث في أثره رجلاً يدعى (ابن شمیلان)، من أهل (الحليفة) القرية التي في منطقة حائل من شيوخ قبيلة (بني رشيد)، وأمره بأن يسير بسيره، حتى يصل إلى بلدة العلا منهياً رحلته، وخارجاً من حدود إمارة ابن رشيد، وحينئذ يقتله ويحرق كل أوراقه، وما معه ماعدا الأشياء التي يحتاج إليها من متاع وزاد ولباس، فهذه لابن شمیلان نفسه، وقد نفذ الرجل أمر سيده.

«رحلة إلى الرياض»

(للسياسي الإنجليزي لويس بلي (Lewis Pelly)^(١))

تمهيد عن صاحب الرحلة:

قد لا يعني الباحث معرفة العنوان الذي اختاره الرحالة لما كتب عن زيارته لمدينة الرياض، فقد وضع لها عناوين تدل على اتفاق المعنى، وإن اختلفت ألفاظها^(٢)، وأن ما يعنيه معرفة الغاية التي حملته للقيام بتلك الرحلة، وهذا يتطلب إيضاح جوانب من أعماله وتصرفاته، قبل قيامه برحلته تلك وبعدها، إذ بدون إيضاح تلك الجوانب تصيح الغاية من رحلة هذا السياسي البارغ غير واضحة، وهذا ما حاول الجَمْعمة عنه دون الإفصاح فيما كتب، وتلك سحجية ليست غريبة على ممتهني السياسة، ولاسيما من الإنجليز.

فَمَنْ هُوَ بلي؟

الرائد بلي كما عبره مترجمو «دليل الخليج» أو (الفتاننت كولونيل) لويس بلي كما وضع الاسم مُعَرَّبًا. إنه ذو أثر بارز في السياسة الإنجليزية في بلدان الخليج العربي، وفي بلاد (عُمان) و (زَنْجَبَار) بل في كل ما يتصل بهذا الخليج، وقد أشار إلى كثير من مواقفه مؤلف كتاب «دليل الخليج» ومن هنا فهو جدير بتفصيل الحديث لإبراز ما هو مرتبط بأثار تصرفاته وقت تمثيله لحكومته البريطانية حين كانت مسيطرة على ذلك الخليج.

ويظهر أن ابن رشيد كان سيء الظن بالرجل، وأنه كان يخشى من أن يكون جاسوسًا، أو إنسانًا كلف بعمل من شأنه امتداد النفوذ الأجنبي إلى جزيرة العرب. والغريب في الأمر أن ابن رشيد لم يكتف بذلك، بل أرسل أناسًا يتبعون المواقع التي علم بأن (هوبر) نقل منها كتابات، وكان مرافقوه عندما يشاهدونه ينقل الكتابة يظنون أنه يكتبها هو في الأحجار، ذلك أنه يستعمل بعض الوسائل التي توضح الكتابة، فنقلوا لابن رشيد أنه يكتب في الجبال وفوق الأحجار، فأرسل أناسًا أمرهم بتكسير كل الأحجار التي فيها كتابة، مما نقله (هوبر).

وهكذا الجهل، فما الذي يضير ابن رشيد لو أمر بحفظ أوراقه وما نقل من آثار أو ابقى على بعض الكتابات التي شاهدها؟!

يحوي حجر تيماء - وهو الآن في متحف اللوفر في باريس - نقشًا من أهم النقوش التي كشف عنها حتى الآن قيمة أثرية، ويرجع تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وهو مكتوب باللغة الآرامية، وفيه أن أحد الكهنة استقدم إلهًا جديدًا إلى تيماء يدعى (صلم هجم) فانشأ لهيكل الإله المعبود وقفا، وعين له كهانة وراثية، ولقد مثل الإله في زي الأشوريين، وظهر في أسفل الرسم رسم الكاهن الذي شيد هذا النصب.

وقد أراح الله بلادنا من الأصنام وعبدها، وطهرها ببعثه سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - الذي نسخ الله بشريعته جميع الشرائع، وأيد شريعته السمحة.

(١) تنطق اللام مخففة في (بلي) وإن ظهرت في الصورة الإنجليزية (Pelly) فهي لا تنطق مشددة، ولهذا ينبغي كتابة الاسم (بلي) بلام واحدة، لا كما ورد في كثير من الكتب ومنها «دليل الخليج» بهذه الصورة (بيللي).
(٢) هي كما في تعريف الرحلة: ١- تقرير عن رحلة للرياض. ٢- تقرير عن رحلة للرياض في وسط شبه الجزيرة العربية.
٣- تقرير عن رحلة للرياض، عاصمة الوهابيين في وسط شبه الجزيرة العربية واختار كلمة (رحلة إلى الرياض).